من تراثنا الأدبي

٤ ـ أبو العيناء

للأستاذ محمود محمود خليل

تتمة

قلت إن أبا العيناء اتسع أمامه الميدان أيام المتوكل ، وظهر نجمه ، وسعدت أيامه ، ثم يقتصر الأمر على اتصاله بالخليفة ، بل اتصل بوزيره الفتح وأخيه عبيد الله ابني يحيى بن خاقان واستفاد من عطاياهم وسخائهم مالاً كثيراً ؛ ولقد مدح عبيد الله لدى المتوكل حينما سأله عنه فقال : « نعم العبد لله ولك ، مقسَّم بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عادَلَ بصلاح ملكك كل لذة » . وله كتاب طويل كتبه إلى عبيد الله يستوهبه دابة يركب عليها حينما وهب له ابنه محمدا دابة ، فزعم أنها غير فاره . وهذا الكتاب تستطيع أن تجده في كتب الأدب ، وهو يدل على التلطف في المسألة ، والاحتيال على هؤلاء الرؤساء بتلك الأحاديث الحلوة الفكهة ، مما حبب أبا العيناء إليهم ، وجعلهم يغضون عن بذاءته ويلبسونه على علاته

انقضت دولة المتوكل ووزيريه الفتح وأخيه عبيد الله ، واضطربت الأمور من بعده ، حتى استتب الأمن ، ورجعت المياه إلى مجراها ، وتولى الوزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة (المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدي) فاتصل به أبو العيناء وحضر مجالسه ؛ وطالما حدثنا الرواة عن كثير من حواداته معه . دخل عليه ذات يوم فقال : اقرب مني يا أبا عبد الله . فقال أعز الله الوزير ! تقريب الأولياء ، وحرمان الأعداء . قال : تقريبك غنم وحرمانك ظلم ، وأنا ناظر في أمرك نظراً يصلح من شأنك إن شاء الله . وقال له يوماً : اعذرني فاني مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك ، وأنشده :

فلا تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال ياسيدي قد عذرتك ، فانه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك . ودخل عليه يوماً فقال من أين يا أبا عبد الله ؟ قال من مطارح الجفاء . وأقبل يوماً إليه ، فشكا سوء حاله ، فقال له أليس قد كتبنا إلى ابراهيم بن المدبر في أمرك ؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصَّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر ، فأخفق سعيي ، وخابت طلبتي . فقال أنت اخترته قال : وما عليَّ أعز الله الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً ، فما كان فيهم رجل رشيد ، واختار النبي (ص) عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً ، واختار علي بن أبي طالب (ض) حكماً له فحكم عليه ؟ ! وإنما قال أبو العيناء ذل الأسر لأن ابراهيم المذكور كان قد أسره صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب

ولما نكب الخليفة المعتمد على الله عبيد الله بن سليمان وولى الوزارة صاعد بن مخلد حصل خصام بين هذا الوزير وبين أبي الصقر اسماعيل بن بلبل الكاتب ، فانضم أبو العيناء إلى حزب أبي الصقر ولكن ذلك الموقف الذي وقفه من صاعد لم يمنعه من أخذ عطاياه واستجدائه ، وحضور مجالسه . وقد عادى أبو العيناء رجلاً يقال له أبو العباس بن ثوابة لمعاداته لأبي الصقر ، حتى إن الرجلين اجتمعا في مجلس صاعد يوماً ، وكان ابن ثوابة قد سبَّ أبا الصقر قبل ذلك بيوم ، فقال ابن ثوابة لأبي العيناء : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : ضيق العطن ، كثير الوسن ، خاراً على الذقن ، وقد يلغني تعديك على أبي الصقر ، وإنما حلم عنك لأنه لم يجد لك عزاً فينله ، ولا علوا فيضعه ، ولا مجداً فيهدمه ، فعاف لحمك أن يأكله وينهكه ، ودمك أن يسفكه . فقال ابن ثوابة : ما تسابَّ إنسانان إلا غلب الأنهما . فقال : لهذا غلبت أمس أبا الصقر !

ولقد كان من جزاء أبي العيناء من أبي الصقر على وقوفه منه هذا الموقف في سبيله أنه عندما تولى الوزارة خيَّره فيما يحبه حتى يفعله به ، فقال أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائي تعرفه مكاني ، وتلزمه قضاء حق مثلي من خدمة ، فكتب اليه كتاباً بخطه فوصله إلى الطائي ، فسبب له في مدة شهر واحد مقدار ألف دينار وعشرة أجل ، فانصرف بجميع ما يحبه . وله أحاديث كثيرة ، ومجالس طريفة مع الوزير أبي الصقر . ويظهر أن هذا آخر وزير اتصل به أبو العيناء من وزراء الدولة العباسية فانه لم يعش بعد ما نكب الموفق أبا الصقر إلا قليلا ، وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ ﻫ

مهاترته مع كاتبين فى عصره

على أننا نرى من الواجب علينا أن نأتى بشىء مما جرى بين أبى العيناء وبين كاتبين قديرين فى عصره ، هما محمد بن مكرم ، وأبى على بن جعفر الضرير ؛ أما ابن مكرم فكانت له معه مداعبات ، وكان يهاتره كثيراً ؛ كتب اليه ابن مكرم يوماً : قد ابتعت لك غلاماً من بنى ناشر ثم من بنى ناعظ ثم من بنى نهد . فكتب اليه : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . وولد لأبى العيناء ولد ، فأتى ابن مكرم فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ، فأحس به فقال : من وضع هذا ؟ فقيل ابن مكرم ، فقال : لعنه الله انما عرض بقول النبى (ص) : الولد للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : ما لك لم تهد الينا هدية ؟ قال : لم آت بشىء ، وإنما قدمت فى خف ، قال : لو قدمت فى خف لخفت روحك . وقال له ابن مكرم يوماً يعرض به : كم عدد المكذبين بالبصرة ؟ فقال : مثل عدد البغائين ببغداد !

وأما أخباره مع أبى على الضرير فكثيرة ، وكم أتمنى أن يتيح لى الزمن فرصة الموازنة بين هذين الرجلين ، فان بينهما شبهاً قوياً ، وقد وجدا فى عصر واحد ، وكانا فى البلاغة نسيج وحدهما ، ولكن كانت بينهما منافسة قوية أدت إلى أن تجرى بينهما مساجلات ومفاخرات كثيرة ، حتى إن فتى من أبناء الكتاب فى بعض الدواوين تعرض لأبى العيناء ، وكان فيه جرأة فقال : كل الناس لك يا أبا العيناء زوجة ، وأنت زوجة أبى على البصير . فقال له أبو العيناء : قد ملكنا عصمتك بيقين خوالك ، ثم ننظر فى شكوك دعواك ، وقد طلقت الناس كلهم سواك ، ذلك أدنى ألا تعول ، وفيك ما يروى الفحول ، ويتجاوز السول . فقصمه بهذا الكلام ولم يجبه

وهذا الحديث يدل على أنه قد كان بين الرجلين تصادم ؛ وإن شئت فسمه مشاكسة وجدلاً عنيفاً وصراعاً قوياً بالألسن وأنه كثيراً ما يكون الغلب فى جانب أبى على الضرير

أدب أبى العيناء

ونقصد بهذا الأدب الشعر والنثر ؛ أما الشعر فلا نستطيع أن نعد أبا العيناء شاعراً مكثراً من طول الشعراء لأننا لم نجد له فى كتب الأدب والتراجم التى بأيدينا شعراً كثيراً ؛ إنما الذى نقدر أن نحكم له به أنه كان من شعراء الكتاب أضراب أحمد ابن يوسف الكاتب والوزير للمأمون فيما بعد ، وقد تقدم له بضعة أبيات مدبجة فى أحاديثه تؤيدنا فى حكمنا هذا

وأما النثر فقد كان أبو العيناء سباقاً قويّاً ، وتمتاز كتابته بأنها تارة تكون مفرغة فى قالب فكاهى مضحك ، تقرؤها فلا تكاد تملك نفسك من الضحك ، ولكنه إذا أفرغها فى قالب الجد أتى بالفقر القصيرة حيناً والطويلة حيناً آخر ؛ وكثيراً ما تكون مرسلة ، وقد يقيدها بالسجع . فأسلوبه من السهل الممتنع كما يقولون ، ويكفيه فى منزلته من البلاغة تعجب المتوكل منه ، إذ سأله : أكان أبوك فى البلاغة مثلك ؟ فأجابه بقوله : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عبداً له لا يرضانى عبداً له . ونرى كاتباً معاصراً له يشهد له شهادة قيمة وهو محمد بن مكرم الكاتب قال : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع فقد ظلم . ونحن وإن كنا نعتقد أن فى كلامه غلواً مراعاة للصداقة المحكمة الأواصر بينهما ، إلا أن الحال التى وصف فيها أبا العيناء بالاجادة خليقة بتقدير النقد الأدبى لها . فاننا نرى الرجل يأتى برسائل ممتعة حقاً نعجب كيف صدرت عنه ، ولكننا لو علمنا أن الدافع له إحساسه بالكرم ، أو شروعه فى الطمع كما يقول ابن مكرم لا نستغرب هذا

وإنى أويد أن أؤيد كلامى بنماذج من رسائله ، ولقد كنت فى غنى عن هذا لما تقدم من أحاديثه وكتاباته ، ولكنى لم أر بداً من الاتيان بنبذة يسيرة منها ، فمن رسائله الفكاهية : ما كتبه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان حينما أهدى اليه ابنه محمد دابة زعم أنها غير فاره :

أعلم الوزير أعزه الله أن أبا على محمدا أراد أن يبرنى فعقنى ، وأن يركبنى فأرجلنى : أمر لى بدابة تقف للنبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عجَفا ، وكالعاشق المجهود دنفا ، قد أذكرت الرواة عذرة العذرى ، والمجنون العامرى . يساعد أعلاه لأسفله ، ... مقرون بسماله ، فلو أمسك لترجيت ، أو أفرد لتمزيت ، ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، تضحك من فعله النسوان ، وتتناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول نق له من الشعير ، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق ، لروى بحق

وصدق ، عن جابر الجعفي ، وعامر الشعبي ، وإنما أتيت به من كاتبه الأعور ، الذي اذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، واذا اختار لغيره أخبث وأزر . فان رأى الوزير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما ضحك مني ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطره العيب بقبحه ودمامته ، ولست أرد كرامه ، سرجه ولجامه ، لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يُهديه ، أو ينقض ما يمضيه .

فوجه اليه الوزير برذونا من براذينه بسرجه ولجامه ؛ ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال الوزير شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وماهذا ثمنه لا يشتكى . فقال أعز الله الوزير لو لم أكذب مستزيدا لم أنصرف مستفيدا ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، فضحك الوزير وقال : حجتك الفاضحة بملاحتك وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة .

ومن رسائله الجدية ما كتبه الى عبيد الله بن سليمان بن وهب : أنا أعزك الله وولدي وعيالي زرع من زرعك ، إن سقيته راع وزكا ، وإن جفوته ذبل وذوى ، وقد مسني منك جفاء بعد بر ، وإغفال بعد تعاهد ، حتى تكلم عدو ، وشمت حاسد ، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعبا ، ولهم مجرّسا . ولله در أبي الأسود في قوله :—

لا تهني بعد إكرامك لي فشديد عادة منتزعه

وتلك الرسالة كانت كافية في أن تطلق يد عبيد الله بالعطاء فوقع في رقعته : أنا أسعدك الله على الحال التي عهدت ، وميلي اليك كما علمت ، وليس من أنساه أهملناه ، ولا من أخرناه تركناه ، وقد وقعت لك برزق شهرين ، لتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقي أرزاقك ، إن شاء الله والسلام .

وكتب إلى الوزير أبي الصقر يشكره : أنا أعزك الله طليقك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذت بيدي عند عثرة الدهر ، وكبوة الكبر ، وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال ، والاخوان والأشال الذين يفهمون في غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غياثاً للناس فظلت عقدة الخلة ، ورددت إلى بعد النفور النعمة ، فأحسن الله جزاك ، وأعظم حباك ، وقدمني أمامك ، وأعاذني من فقدك ، فقد أنفقت على مما ملكك الله ، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي ، والله عز وجل يقول لينفق

وداع والد

للأستاذ محمود خيرت

أخوان ما آب المسافر منهما حتى استطاب أخوه هجران الحمى
فالقلب بينهما الفداة موزّع حيران يخفق نشوة وتألما
ولشدّ ما يجد المفارقُ ما انتحى من جنة اللقيا إليه جهنما
يا أكبر الأبناء خلف بعده صبراً تقطع حبله وتصرّما
لم تدر يوم البين ما فعل الأسى بأبيك لما أن دنوتَ وسلّما
عقد الذهولُ عن الكلام لسانَه فتكلّم الدمع العصيُّ وترجما
ومشى إليك مشرّداً متخاذلا يأبى عليه الهول أن يتقدّما
حتى إذا نأتِ السفين بركبها وغدوتَ بالبُعد الطويل ملثّما
بدَتِ الحقيقة كالخيال فها أنا إما أراك غداً أراك توهّما
والدار تنعى أنسها الماضي وقد أمسى على ظمأى النفوس محرّما
يا من كساها من بشاشته سنًى عكست جوانبُها صداه تبسّما
للدور أرواح تحنّ لأهلها وتطوف من خلل الحواجز حُوّما
وضّاءة بهمُ الزمانَ فإن هُمو نزحوا تغشاها الظلام وخيّما

* * *

كم كنت ترعاني وتأسو علّتي وتحولُ دون الدّاء أن يتحكّما
ولكم سهرتَ عليّ فيه لياليا لا عابساً فيها ولا متبرّما
وتخذتُ منك وأنتَ مني عدّة عند الزمان إذا الزمان تجهّما
فاليوم أقسى ما يمرُّ به أبٌ ثقُلت عليه همومُه فتهدّما
لكنْ رحلتَ ونصبُ عينك غايةٌ كانت أعزّ من البقاء وأكرما
وطّنتَ نفسك في أمانيها على أن تركب الأخطار كي تتعلّما

محمود خيرت

ذو سمة من سمته ، فالحمد لله الذي جعل لك اليد العالية ، والرتبة الشريفة ، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسطتها من عدلك ، وبث فيها من رفدك والسلام ؟

الزقازيق محمود محمود خليل

ملاحظة : يقول الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر : ان أخبار أبي العيناء قد جمعت في سفر جليل ، ولكني برغم بحثي لم أعثر عليه ، ولعله ضاع كما ضاع غيره من نفائس كتب الأدب التي لم تصل الينا ؟